أهداف التنصير في الجزائر في المدى المنظور والبعيد

د. فاتح حليمي / جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة، الجزائر

إنَّ عنوان مداخلتي في هذا الملتقى الكريم هو أهداف التنصير في الجزائر، وبناء عليه فإنني سأتحدث بحول الله تعالى عن العناصر التالية:

مفهوم التنصير أو التمسيح، تاريخه في الجزائر ثم أهدافه، ولقد كفاني بعض الأساتذة مشكورين بحديثهم عن العنصر الأول، غير أنني أشير إليه بشكل سريع.

1_ مفهوم التنصير:

إن التنصير أو التمسيح يعني الدعوة إلى المسيحية ونشرها بين الناس، وبعبارة أخرى هو "تحويل الناس من دياناتهم التي يدينون بها إلى الديانة النصرانية"[1]، وبالنسبة للمسلمين هو شكل من أشكال الغزو الفكري الذي يستهدف تحويلهم إلى النصرانية[2]، وقبل الغوص في الموضوع وحيثياته، متجاوزين مسألة التعاريف، التي يمكن العودة إليها، لأنها موثقة في كثير من المراجع ربحا للوقت وتفاديا

[1] أحمد سعد الدين الكيساطي، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، ص 31.

[2] سلمان سلامة عبد المالك ،أضواء على التبشير والمبشرين، ص 21.

للإطالة، فإنه يجدر بي تسجيل الملاحظات التالية بخصوص مسألة التنصير أو التمسيح بتعبير أدق كمسألة اصطلاحية، لأنه مرتبط بالمسيحية، وأولى هذه الملاحظات:

1/ أنه واجب ديني مقدس عند المسيحيين، ينبغي عليهم – تبعا لنصوصهم الدينية القيام به –، ويستندون في ذلك إلى ما جاء في أقدم إنجيل عندهم (مرقس): «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها»[1]، وذلك إذا ما أغضينا النظر عما قاله المحققون في هذا النص[2]، وكذلك ما جاء في إنجيل (متى): «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»[3]، وكذلك: «ولكن روح القدس يحل عليكم ويهبكم القوة وتكونون لي شهودا في أورشليم واليهودية كلها والسامرة، حتى أقاصي الأرض»[4]، شأنهم في ذلك شأن كثير من الأديان — منها الإسلام – التي توجب على المؤمنين بها القيام بدعوة الآخرين إلى اعتناق معتقداتها والالتزام بتعاليمها، وهنا نشير بشكل عابر إلى أن بعضها توقف عن ذلك، ومن ذلك الديانة التي كانت تؤمن بدعوة الآخر، غير أنها أغلقت باب التبشير منتصف القرن الثالث عشر للميلاد[5]، وذات الشأن بالنسبة إلى الديانة الزرادشتية وغيرها.

---

1 مرقس 16_15

2- أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ،ص162.

3 متى 28:29

(4)-أعمال الرسل: 1-8

5 أحمد سوسة، أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2003م، ص 44.

2/ إن التمسيح المسيحي يستهدف جميع الشعوب والأمم في المعمورة، و" لا فرق عندهم إذا كان هؤلاء الناس من أصحاب دين سماوي أم دين غير سماوي"[1]، وبطبيعة الحال فان المسلمين يدخلون ضمن هذا المجموع، مما يعني أنه لا يستهدف المسلمين وحدهم، وهذا حتى نضع الأمور في نصابها، وبذلك لا نضخم نظرية المؤامرة.

3/ إنه بالعودة إلى الأصول الإسلامية، فإننا نجد أن الإسلام يقر ويضمن حرية المعتقد، وذلك بالاستناد إلى ما جاء في القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[2] ، وكذلك ما جاء في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[3] ، وبالعودة إلى ما جاء في كتب التفسير، فإننا نجدهم يؤكدون على هذا المبدأ الأساسي بشكل صريح، ومن هؤلاء الطبري وابن كثير الذين شرحوا الآيات السابقة وقالوا بشأنها: "أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم

---

[1] أحمد سعد الدين الكيساطي، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، ص 31.

[2] -سورة البقرة: 256.

[3] -سورة الكهف: 29.

على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسوراً "، أما الإمامان الرازي والزمخشري فقالا بشأن النصين السالفين من القرآن الكريم:"... معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار"، وعضد ذلك حديثا ما جاء في تفسير المنار بشأن تقرير ضمان مبدأ حرية المعتقد، حيث قال: "فقوله تعالى: "لا إكراه في الدين قاعدة كبرى من قواعد الدين وركن عظيم من أركان سياسته فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أحدا من أهله على الخروج منه، وإنما نكون متمكنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كنا أصحاب قوة ومنعة نحمي بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا في ديننا اعتداء علينا ... اذ أمرنا أن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نجادل المخالفين بالتي هي أحسن معتمدين على أن نبين الرشد من الغي بالبرهان وهو الصراط المستقيم إلى الإيمان، مع حرية الدعوة وأمن الفتنة فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار، أي أنه ليس من جوهره ومقاصده وإنما هو سياج له وجنة، فهو أمر سياسي لازم له للضرورة"[1]. ومن الناحية العملية فإن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بينت بما لا يدع مجالا للشك والتخمين ضمان الإسلام وإقراره لحرية ممارسة العبادة، حيث أنه أعطى الأمان لنصارى نجران، وبأن لهم حق العبادة وممارسة شعائرهم الدينية[2]، وذات الأمر تكرر مع غيرهم.

وعليه فإنه يمكن التأكيد والتوكيد على أن الإسلام يقر من حيث المبدأ مسألة حرية الاعتقاد ويحترمها تبعا لما جاء في تعاليمه، لكن ينبغي على الباحثين الانتباه والتركيز على ما

---

[1] – تفسير المنار، ط2، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج 3، ص36 -39.

[2] البلاذري، فتوح البلدان، ص85.

يقع في أرض الواقع وخاصة في العالم الإسلامي، لأنه في المحصلة شيء آخر، ولا علاقة له بهداية الناس ودعوتهم إلى اعتناق تعاليم المسيحية، ذلك أن "وسائل المنصرين لا علاقة لها بأي خلق لأي دين"[1]، وإن الموضوعية العلمية تقتضي منا القول بأن هذا الأمر وفي هذا المجال لا يقتصر على التمسيح وحده، ذلك أن كثيرا من الحركات والمذاهب، سعت ولازالت تسعى جاهدة لنشر أفكارها بين الناس وبطرق ملتوية مستعملين وسائل وضيعة، لا تحترم كرامة الإنسان، ولا حقه وحريته في الاختيار، مما يخرج الموضوع عن إطار الدعوة إلى اعتناق فكرة أو دين، إلى موضوع أكثر من ذلك بكثير.

4/ ومما سبق عرضه يتبين لنا أننا أمام موضوع بالغ التعقيد والحساسية، ولذلك ينبغي –كجامعيين وأكاديميين –، أن تتميز مداخلاتنا بالهدوء والروية، وأن تتسم دراساتنا بالدقة والموضوعية والعلمية، مع الابتعاد قدر الإمكان عن الذاتية والعاطفية والأحكام المسبقة وتضخيم نظرية المؤامرة، قصد محاولة الإحاطة بالموضوع ومن ثم تقديم إجابات علمية، بل واقتراح مشاريع حلول عملية، ذلك أنني أرى أن بعض الإعلاميين ومن خلال معالجتهم لهذه القضية، قد ضخموها ومن ثم خدموها من حيث يعلمون أو لا يعلمون، متناسين وغافلين لقضايا أخرى مشابهة لها كالتشيع وغيرها.

إن هذه الظاهرة في نظري تستحق فعلا معالجة أكاديمية علمية هادئة، خاصة إذا علمنا أن ميزانية التنصير لسنة 1999 قدرت بـ 181 مليار دولار أمريكي، وأن عدد المنظمات التنصيرية كان 24580 منظمة،أما عدد المعاهد التنصيرية فكان 98720 معهدا[2]، وهو ما يعني أننا أمام عمل مؤسساتي ضخم تؤطره هيئات عليا

---

[1]- محمد عمارة، الجديد في المخطط العربي تجاه المسلمين ،ص 26.

[2] علي بن إبراهيم الحمد النملة، التنصير في المراجع العربية، ص 18_19.

ومؤسسات محترفة وأجهزة مختصة، وهو ما يفرض على جميع المختصين والمهتمين بالموضوع، تقديم جهد علمي وعملي، بما يتناسب مع هذا الحجم، بعيدا عن اجترار الخطابات ولوك الكلمات، دون تقديم أي شيء يذكر.

2_ تاريخ التنصير في الجزائر:

إنَّ الدارس لتاريخ حركة التمسيح في العالم، يتبين له ارتباطه الوثيق بالتوسع الاستعماري، وقد ذكر ويل ديورانت أن أول منصر هو اليهودي المتنصر (بولس) والذي حول المسيحية إلى ديانة عالمية، وعندما اعتنق قيصر روما (قسطنطين) المسيحية حملها كذريعة للتوسع الاستعماري وتحقيق الطموحات المادية، ومن هنا نشأت حركة التنصير الواسعة[1]، ولذلك أكد كثير من الباحثين[2]، أن التمسيح لعب دورا هاما في التوسع الأوروبي، وخاصة بعد الاكتشافات الجغرافية، حيث ساهمت أفواج المنصرين والممولة من حكوماتهم في بعث النفوذ الديني والاقتصادي والسياسي[3]، وبذلك فإن القرن التاسع عشر يعد بالفعل عصر التنافس الاستعماري الأوروبي على قارة إفريقيا، حيث تم استخدام المبشرين كأداة لتحقيق الأغراض السياسية الأوروبية، فبعد عودة أسرة البربون إلى الحكم سنة 1815م، عملوا على رد الاعتبار إلى المسيحية، وجعلوا منها قوة للإدارة، وفي عهد شارل العاشر سليل القديس لويس التاسع، جعل من الكنيسة قوة سياسية واقتصادية وشعبية، فنشطت الإرساليات التبشيرية، واعتبرت فرنسا نفسها أنها حامية الكنيسة الكاثوليكية، حيث

---

[1]- ويل وايرل ديورانت، قصة الحضارة، ج11 ،ص384-387 .

[2] منهم: عمر فروخ الخالدي وآخرون، ... ص 45.

[3] خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830_1871 ،ص11.

أرسلت إلى الجزائر برجال دينها وساعدوا في رسم خطط الاحتلال، وفي معاهدة5 جويلية 1830م، والتي وقعها دوبرمون والداي حسين تم التأكيد على أن السلطات الفرنسية (ستحترم الأملاك والنساء والديانة)، لكن بعد سقوط مدينة الجزائر أسرع الجنرال دوبرمون بإقامة صلاة في القصبة وخطب في الحاضرين قائلا: (لقد أعدتم معنا فتح باب المسيحية لإفريقيا، ونتمنى في القريب أن نعيد الحضارة التي انطفأت فيها منذ زمن طويل)، وفي ذات الوقت كان الملك شارل العاشر يحضر قداسا في كنيسة نوتردام بباريس حمدا للرب على للنصر على أعدائهم[1].

لقد التزم الجنرال دوبرمون بالعمل بالمعاهدة والتي نصت في بندها الخامس على حرية العمل بالدين الإسلامي، واحترام كل ما يرمز إليه، غير أن المعاهدة بقيت حبرا على ورق، فالفرنسيون استولوا على المساجد وحولوها إلى كنائس وثكنات بل وإسطبلات، معتبرين أن المعاهدة لم تكن إلا لعبة حرب، واستمرت نفس الممارسات بعد سقوط حكم الملك شارل العاشر، والذي ذهب معه الجنرال دوبرمون، وعوضه الجنرال كلوزيل، ففي السابع عشر من ديسمبر1831م، تم تحويل مسجد كتشاوة إلى كنيسة القديس فليب، بعد أن اقتحمه الجيش وقتل آلاف المسلمين الجزائريين، واختار القس كولان ذكرى ميلاد المسيح المصادفة ليوم 24_12_1832 لتمسيح المسجد وتحويله إلى كاتدرائية، وأرسلت الملكة إميلي زخارف للكاتدرائية، بينما أرسل الملك ستائر ثمينة، وبعث البابا غريغوار السادس عشر تماثيل للتبرك بها، وهو ما يدل

---

[1] خديجة بقطاش، المرجع السابق ،ص13_20.

على تآزر السلطة الرسمية بباريس والعسكرية بالجزائر والروحية بروما على إحياء الكنيسة بإفريقيا[1].

ثم ظهرت مبادرات فردية لربط التنصير بالاستعمار، منها ما قام به البارون أوغسطين دوفيالار، حيث كان أول معمر جاء إلى الجزائر لخدمة التنصير، وساعدته الملكة اميلي، وأخته الراهبة اميلي دوفيالار والتي كانت تساعده في مجال التمريض، كما استعانوا بعدها بالأب بورغاد والذي كان من ألمع المبشرين.

وفي 8أوت 1838 اتفق البابا غريغوار والملك لويس فيليب على تأسيس أسقفية الجزائر برئاسة الأسقف أنطوان دييش، والذي شجع عملية التنصير، حيث كان يقدم 20ف لمن يسمع عظة الكنيسة، و50ف لمن يقبل التعميد وكان يوزع الخبز على المعوزين يومي الاثنين والخميس، واختار الاطفال لتنصيرهم، كما تمت الاستعانة باليسوعين، والذين أسسوا الجمعية الدينية للقديس أوغسطين سنة 1844م.

وفي سنة 1867_1868م، ظهرت أسراب الجراد التي قضت على المحاصيل وتلاها جفاف عام، ثم جاءت الأمطار الغزيرة والثلوج الكثيرة، وبعدها حلت الكوليرا، فالمجاعة العامة، وأمام هذا الوضع ظهر الكاردينال لافيجري والذي خلف الأسقف بافي أواخر 1866م على أسقفية الجزائر، مستغلا المأساة، حيث جمع الأطفال والمشردين والمرضى بغرض تنصيرهم[2]، ثم تم تأسيس فرقة الآباء البيض وبعدها الأخوات البيض وأسست مراكز في منطقة القبائل، غير أن الطريقة الرحمانية كانت لهم بالمرصاد.

---

[1] المرجع نفسه، ص22_34.

[2] خديجة بقطاش، المرجع السابق ،ص61_112.

3_ أهداف التنصير في الجزائر:

إن الدارس للفكر التنصيري وتاريخه ،لا يجد ما يوثق ويتحدث عن أهداف المنصرين في الجزائر بشكل واضح وجلي، باستثناء بعض الكتابات والإشارات المتفرقة، ولكن بالرجوع إلى الأهداف العامة للتنصير وهي معلنة في وثائقهم، وسائل التنصير وبالنظر إلى ما تزخر به بلادنا فإن ذلك يساعدنا في كشف أهدافهم.

أ_أهداف التنصير المعلنة كثيرة منها:

_ هدم الإسلام في قلوب المسلمين وزعزعة العقيدة، مع قطع صلتهم بالله[1]، وتحويلهم عن دينهم ولو لم يعتنقوا النصرانية وتحولوا إلى الكفر والإلحاد[2]، وهو ذات الأمر الذي عملوا على تحقيقه في الجزائر.

_ إخضاع العالم الإسلامي لسيطرة الاستعمار والتحكم في مقدراته وإمكاناته[3]، وفرض ثقافته عليه، ولقد برزت صلة التبشير مع الاستعمار، فقد "عقد مجلس الكنائس العالمي مؤتمرا في مدينة سالونيك باليونان سنة 1959 وتقرر فيه أن السياسة هي المجال الذي يتحتم على الكنيسة في دول إفريقيا وآسيا وأمريكا أن تعمل فيه"[4]، وإن المتابع لما يجري في الجزائر لا يعوزه الذكاء الوقاد لاكتشاف ذات السياسة ونفس المخططات.

ب_وسائل التنصير:

---

[1]- أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ،ص162.

[2]- محمد بن ناصر الشتري، الهجمة التنصيرية على البلاد الإسلامية، ص 13 .

[3]- أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص162، وأحمد سعد الدين الكيساطي، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، ص 226.

[4] سلمان سلامة عبد المالك ،أضواء على التبشير والمبشرين، ص 22.

ــ مؤثرات فكرية عديدة منها:

تقوم عملية التمسيح وترتكز على الدعوة إلى الشعوبية والقومية ،والعمل على إحياء القوميات في كل بلد، ومحاولة إيجاد أقليات دينية لتكون مواطئ أقدام له وثغرات لنفوذه، بل وحتى استعمال الأقليات العرقية الإسلامية[1]، ونموذج العراق (أكراد سنة في الشمال، عرب شيعة في الجنوب وعرب سنة في الوسط)، ومن ثم استخدام حق التدخل، وهو ما يؤدي في النهاية إلى تمزيق الوحدة الإسلامية[2]، بين الشعوب الإسلامية، بل وإثارة الفتن الداخلية[3] بين مكونات الشعب الواحد، وهو ما حاولوا القيام به في الجزائر، وذلك من خلال الطرح الخاطئ لموضوع الأمازيغية، ومحاولة الفصل بين سكان منطقة القبائل عن بقية مكونات الوطن، وذات الأمر تكرر بشأن التوارق في الجنوب، وبني ميزاب في غرداية ، وذلك بهدف الوصول إلى إيجاد دولة أو دويلة داخل الوطن، ولكن على أساس عرقي وبشكل خاطئ، ومن ثم يسهل لهم تحقيق مآربهم وتمزيق الوحدة الترابية للوطن، لكن كثيرا من الخيرين من أبناء الوطن تصدوا لذلك وأفشلوا المخططات التمسيحية، رغم أخطاء بعض الساسة في معالجة الموضوع والتصدي لتداعياته في المستقبل، والتي إن لم نعمل جميعا على تداركها فستكون العواقب غير محمودة.

ــ العلاج الطبي[4]: وهو وسيلة لا زالت تستعمل في بلادنا، ومن ذلك ما تقوم به كاتدرائية القديس أوغسطين بمدينة عنابة – شرق الجزائر–، حيث تشرف على إيواء العجزة من المسلمين بالجزائر وتقدم لهم الخدمات الطبية، بهدف إتمام عملية التمسيح.

---

[1]– محمد عمارة، الجديد في المخطط العربي تجاه المسلمين، ص 17.

[2]– أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص175.

[3]– أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص176.

[4]– محمد بن ناصر الشتري، الهجمة التنصيرية على البلاد الإسلامية، ص 19 .

ــ الشؤون الاجتماعية منها: استغلال حالات الفقر والحاجة، والتقاط أطفال المسلمين بمختلف السبل، واستخدام الإغراء المالي[1]، وقد كانت الإرساليات المسيحية تستعمل الإغراء المالي في منطقة القبائل[2]، وغيرها من المناطق، ولا زالت تعمل بنفس الشاكلة، ومن ذلك الإغراء بالفيزا ومناصب الشغل وغيرها.

ج ــ مميزات الجزائر:

تتميز الجزائر بموقع استراتيجي هام، كما أنها أكبر دولة افريقية مساحة بعد انفصال جنوب السودان، ولها ساحل بحري بطول 1200كم، أو 1600كم كما ذكر البعض في وسائل الإعلام الوطنية، وتمتد في عمق القارة بأكثر من 2000كم من الشمال إلى الجنوب، انطلاقا من العاصمة وصولا إلى مدينة تمنراست، وحباها الله بالكثير من الخيرات، من أراض خصبة وبترول وغاز و مناجم ومعادن وطاقة بديلة (مشروع ديزارتيك لتمويل أوربا)، وتزداد أهمية هذا المشروع بعد فشل الخيار النووي عقب زلزال اليابان والتسونامي الذي تبعه وانفجار المحطات النووية بهذا البلد وانعكاساتها الخطيرة، ناهيك عن الطاقة الشبانية، وهو ما يسيل لعاب الجهات القائمة على عملية التمسيح أمام كل هذه الخيرات، ولذلك فإنني أنتهي إلى تقديم جملة من الاقتراحات، منها:

ــ تشكيل هيئة عليا تتبع لرئاسة الجمهورية وتتشكل من مختصين وخبراء في مقارنة الأديان وممثلين عن الوزارات المعنية بالموضوع منها: التعليم العالي، التربية الوطنية، الشؤون الدينية، الدفاع الوطني، الداخلية، الإعلام والثقافة، الرياضة والشباب، الخارجية، وتعنى هذه الهيئة بجمع المعلومات والأرقام والإحصاءات المتعلقة بالظاهرة، وتقديمها للخبراء بعد ذلك

---

[1]- أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص191.

[2] أحمد سعد الدين الكيساطي، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، ص 31.

قصد تحليلها ودراستها، ومن ثم تقديم الإجابات حسب الفئة المستهدفة، تبعا لطبيعة المعتقد أو المذهب، خاصة مع تطور الإعلام الرقمي وتزايد مواقع التواصل الاجتماعي، ووجود شركات متعددة الجنسيات عندنا.

ــ تفعيل المؤسسات المعنية بالتكوين، منها المساجد والمدارس والجامعات والمراكز الثقافية ووسائل الإعلام، وتكوين إطارات مختصة وظيفتها الأساسية التعامل مع القضية وتبعاتها على مختلف الأصعدة.

ــ تفعيل دور الزوايا والجمعيات الدينية، وكل ما من شأنه التصدي للظاهرة.

